ففى قـوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتـضى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلَّام) .

وهناك قضية لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبـالغة ، فحيـن نقـول مثـلاً : فلان أكول ، فـهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين نقـول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تـعالى : ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفسهم جاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفسهم بالكفـر بعد أنْ كرّمهـم الله ، وكان عليـهم أنْ يُصـعِّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهـينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعـد أن حدثتنا الآيات عن الكـافرين الذين اتخـذوا الشركـاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل ومـا كان من عقـابهم ، تعطينا مثـلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ
لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

كلمة (مَـثَلُ) وردت بمشـتقاتهـا فى القرآن الكريم مـرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا

قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعنى تشبيه قصة أو متعدِّد بمتعدِّد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحق - سبحانه وتعالى - لا يُشبِّه شيئاً بشىء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا فى وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذى سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن فى قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ .. (٥٩) ﴾ [آل عمران]

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان

ينبغى عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضى أن تكون الفتنة فى آدم لا فى عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته فى أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشىء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب - والأدلة على ذلك واضحة - إذن : فطلاقة القدرة فى هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حَدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشىء الغامض بشىء واضح ، والمبهم بشىء بيِّن ، والمجمل بشىء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن فى ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال فى البيان والتوضيح .

ويُحكَى أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد فى نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويَتْ أتَـــاحَ لَهَـــا لسَـــانَ حَسُـود
لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فيما جَـاورَتْ مَا كان يعرف طيبِ عَرْفِ العُودِ

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتـقاتها أيضاً (مَثُلَة) كمـا فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦)﴾ [الرعد] وهى العقـوبات التى حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتـهر المثَل انتشـر على الألسنة ، وضربه الناس مثـلاً كما اشتهر حاتم الطائى بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتـهر بيننا عبارة مـوجزة ، فتصـير مثلاً يضـرب فى مناسبها كـما نقول للتلميـذ الذى يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامـتحان (قبل الرماء تملأ الكـنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل فـى كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمى ولا كنائن .

كما أن المـثَل يقال كما هو دون تغـيير ، سواء أكـان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجـمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلـك نقول (ماذا وراءك يا عصامِ) بالكسر ؛ لأنها قيلت فى أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١)﴾ [العنكبوت]

فهـذا مثل فى قمـة العقـيدة ، ضربه الله لنا للتـوضيح وللبـيان ، ولتقريب المسـائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقـول للمثل الذى ضربه الله

لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سرِّ العظمة فيها .

ففى هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموى .. إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التى لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] ما فوقها أى : فى الصِّغَر والاستدلال . أى : ما دونها صغَراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشىء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشىء الأقلّ حجماً الأكثر دقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهى أضخم وأشهر ساعة فى العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصَّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها فى ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التى جعلوها فى فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دقَّة الصنعة فى صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان فى حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً فى حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التى بين جنبيك والتى بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثل الذى ضربه الله لنا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] أى : شركاء وشفعاء ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] هذا المخلوق الضعيف الذى ينسج خيوطه بهذه الدقة التى نراها ، والذى نسج خيوطه على الغار فى هجرة رسول الله ﷺ ، واشترك مع الحمامة فى التعمية على الكفار .

﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] أى : من هذه الخيوط الواهية ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] فخطأ العنكبوت ليس فى اتخاذ البيت ، إنما فى اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط فى البيت أن يكون حصيناً يحمى صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط .. إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق فى الخَلْق لكان أنسب وأَجْدى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

ومعنى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق - عز وجل - فلو فكَّروا فيها وفي أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهي - إذن - دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذي تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً في خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خِسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها - أي : في زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كان ينبغي منك أن تبحث عن شيء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شئتَ عن الجماد قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أي : في الأرض ﴿ وَرَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هي مخازن القوت للناس على مَرِّ

الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمى الذى يحمله إلينا الماء فى أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة فى السهول والوديان ، فتكون مصدر خصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمى .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفى موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى قمة العقيدة أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهى ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذى يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس فى الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢)﴾

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التى تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] وقوله هنا ﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أى شىء .

أو أن (شىء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشىء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذى شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشىء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه . فماذا جرى لكم ؟! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً فى الخَلْق ، والأصنام جمادات ، وهى أدنى أجناس الوجود .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) ﴾ [العنكبوت] العزيز الذى يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم فى كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣) ﴾

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] حيث استقلُّوا

البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عـالمين بدقة المثل ، واقرأوا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسـط شيء فى حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامـك ، فأخذ منه شـيئاً أتستـطيع أن تسـترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت ؟

إذن : فالذبـابة ليسـت شـيئاً تافـهاً كـما تظنون ، بل وأقلّ مـنها الناموس (والميكروب) وغيره ممـا لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسـرار تدلُّ علـى قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أى : ما فـوقهـا فى الصِّغَر ، ولـك أن تتأمل البـعوضـة ، وهى أقلّ حجـماً من الـذباب ، وكيف أن لهـا خرطـومـاً دقيـقاً ينفذ من الجلد ، ويمـتصّ الدم الذى لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذى لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففـى هـذه المخلوقات الحـقيرة فى نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلهـا إلا العالمـون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكـتشـفها غـير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عـقلها فآمن ، ومَنْ لم يعـقلها فظلَّ على كفره مع أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله ؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخـالق فى الخَلْق . لذلك جاء فى الأثر : « العـالم الحق هو

الذى يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن لغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هى الوحيدة التى أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتى بجديد فى الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذى اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلى والعبقرى ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى

إنهم يقـولون : فلان أول مَنْ قال مـثلاً : أمـا بعد[1] . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل فى كل المـجالات ، وننسب كل صنعة وكل اخـتراع واكتـشاف إلى صـاحبـه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقـيم له تمثالاً .. إلخ .

إذن : فـمـا بالك بالخـالق الأعظم سـبحـانه الذى خلق السـمـوات والأرض وما فيهـما ومَنْ فيهما ، أليس من حقـه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حـقه على عبـاده أن يعتـرفوا له بالخَلْق ؟ خـاصة وأن خَلْق السموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفـسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعـالى يخبرنا بهذه الحقيـقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهـذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بجمـاعة جلسوا فى مجلس ، فلمـا انفضَّ جمعهم وجد صـاحب البيت محفظـة نقود لواحد منهم ، فسـألهم : لمن هذه المحـفظة ؟ فقالوا جـميعـاً : ليست لى إلا واحد منهـم قال : هى محـفظتى ، فهل يشكُّ صـاحب البيت أنهـا لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فقالوا (الله) فلماذا يذكـر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ لا يريـد بهـذه الآية أن يخـبـرنا أنه خـالق السمـوات والأرض ، إنما يريد أن يخـبرنا أن خَلْق السـموات والأرض

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : « أول من قال أما بعد داود النبى عليه السلام . قال : وهو « فصل الخطاب » أخرجه ابن أبى عاصم فى الأوائل (حديث ١٩١) والطبرانى فى الأوائل (٤٠) . وعزاه السيوطى فى الوسائل (١١٧) لابن أبى حاتم والديلمى عن أبى موسى .

بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذى لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء فى الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فالسموات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً فى عمر السموات والأرض وفى عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التى نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذى نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هى لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفى نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلقا بحساب بديع دقيق ، ويكفى أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرف عن الشمس والقمر من كبَر حجمهما ، فإنهما يسيران فى مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

هذا كله من معنى خَلْق السموات والأرض بالحق . أى : بنظام

ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف في كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾